الفصل التاسع[١٤٩]

المحاولات الأولى للتأطير السياسي والأخلاقي للعولمة: قانون الأمم، الحرب العادلة وحق التدخل، تاريخ [1]

Les premières tentative d'encadrement politique et moral de la mondialisation: Jus gentium, gerre juste et droit d'ingérence, histoire

في القرن السادس عشر الميلادي كانت إسبانيا من أكبر بلدان أوروبا المسيحية، قوة إمبريالية، اكتشفت عالماً جديداً وإنساناً جديداً وغزتهما. كانت إسبانيا حينئذٍ قد حققت للتو وحدتها السياسية والدينية. وانتهى الملوك الكاثوليك عام ١٤٩٢م من حرب استعادة الجزيرة الأيبيرية من المورسكيين. وعبر آخر أمراء غرناطة عبوراً لا رجعة بعده مضيق جبل طارق مع أنصاره. وأصبحت غرناطة مدينة مسيحية، وأرسى أولئك الملوك الجدد بسلطتهم أسس معبد نصراني في قلب مسجدها العريق. وبدأت على الفور سياسة تعليم دينية، وفرض على السكان المسلمين الارتداد عن دينهم في الأندلس كلها. وفي السنة نفسها ١٤٩٢م أجبر اليهود الإسبان على اعتناق المسيحية أو

---

(١) هذا نص موسع لمحاضرة ألقيت في جامعة كاب تاون في جنوب إفريقيا بمناسبة الاحتفال بمرور عشر سنوات على سقوط حكم التمييز العنصري، ونشر في كتاب بعنوان: فلسفة وبلاغة؛ نشر ضمن مطبوعات جامعة بنسلفانيا، ٢٠٠٥م، بعنوان: "إدارة العالم: تطوير علماء دين في سلمنكا قانون الأمم في القرن السادس عشر الميلادي".

مغادرة البلد. و١٥٩٢م هي أيضاً السنة التي اكتشف فيها كريستوف كولومبوس Christophe Colomb جزر الهند الغربية التي ستُسمى قريباً "أمريكا". حينئذٍ حرصت السلطات السياسية والدينية في إسبانيا، أي الملوك الكاثوليك، والأساقفة، وعلى وجه الخصوص أسقفا مدينة الوليد وإشبيلية القويان ومحاكم التفتيش على مراقبة البشر والأراضي التي أخضعت لمراقبة فاعلة؛ لا يمكن لمن يسكنون الإمبراطورية الإسبانية أن يكونوا إلا من النصارى. ومنذ بداية القرن سيطر شارل كينت Charles Quint، ملك إسبانيا الكاثوليكي، وإمبراطور الإمبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة، على إسبانيا وعلى البلاد الواطئة (هولندا)، وعلى فرانش كونتي، وعلى قسم من ألمانيا وإيطاليا، ونصف القارة الأمريكية. كيف يدار العالم من الشواطئ الغربية للبحر الأبيض المتوسط إلى المحيط الأطلسي وإلى بحر الباسيفيك، ومن بلاد الفلاندر (بلجيكا)، وألمانيا ونابولي وبرشلونة ومدريد وإشبيلية حتى فيراكروز ومكسيكو وبلاد الهند؟ هذا ما جهدت السلطة الإسبانية على إيجاد حل له لكي توطد حكمها المستدام في تلك الأنحاء. وفي هذا السياق من اضطراب المعارف والسلطات أصبحت تطرح نفسها بطريقة جديدة كل الجدة، وأصيلة، مسألة حقوق الشعوب وحقوق البشر. وبذلك تداخل تداخلاً وثيقاً الجانب السياسي والجانب الديني.

١- في البدء، الأسس اللاهوتية للعولمة

1. Au commencement, les fondements théologiques de la mondialisation

هناك في هذا التاريخ أهمية قصوى لنظام يقوم على المعتقدات. أعني المسيحية المرتبطة بشخصية قيادية لمؤسس تاريخي، المسيح عليه السلام، الذي حكم عليه بالموت لأنه قلب النظام العام الروماني واليهودي رأساً على عقب.، والذي بُعث، حسبما أكد حواريوه، وصعد إلى السماء بانتظار أن يعود لمحاكمة العالم. والحال أن المؤسس لم يرد ألبتة، ولم يطمح لأن يكون زعيماً سياسياً - "مملكتي ليست في هذا العالم"، والمسيحية كما كوَّنها أولئك الذين نصبوا أنفسهم ورثة المسيح، منحت الدول المسيحية

بدءاً [١٥٠] من اعتناق **الإمبراطور الروماني قسطنطين المسيحية** في بداية القرن الرابع الميلادي أساسها العقائدي.

نعتزم هنا تفحص الكيفية التي تبنت بموجبها العدالة النافذة والقوية عند ملوك **إسبانيا المسيحية** وأمرائها، متبادلة الدعم مع عدالة الكنيسة، أي عدالة السلطات الدينية الساهرة على تأويل المعتقدات والطقوس، تبنت، فكرة تأمين الخلاص للجميع من منظور **نصراني**، أي السعي شيئاً فشيئاً إلى جعل البشر جميعاً في البلاد الخاضعة لهم تابعين لهم. إذنْ، إن العدالة التي كانت مطبقة هناك حينئذ تستند إلى عقلية من نمط أخروي. إن إدارة العالم في القرن السادس عشر كما كان يراها **شارل كينت، ملك إسبانيا**، هي أن يقوم بصدق بعمل أخروي. لذلك يمكن لعدالة البشر، وهي تؤكد أنها تعمل لتحقيق الخلاص، أن تظهر بمظهر محاربة بشر آخرين، وأن تحث على أعمال الاستعباد والهيمنة وإضفاء الشرعية عليها.

حينئذٍ تأسست على النصوص المقدسة للمسيحية البراغماتية السياسية لأسياد **الإمبراطورية الإسبانية**. في عام ١٤٩٣م، وبعد سنة من وصول **كريستوف كولومبوس** إلى القارة **الأمريكية حدد البابا ألكسندر السادس بورجا**[٢] Alexandre VI Borja بالقرارات البابوية inter caetera مناطق النفوذ الخاصة بكل من **إسبانيا والبرتغال** في العالم الجديد، وقد أوكل بموجب ذلك إلى حكام **إسبانيا**، أولئك "**الملوك الكاثوليك** بحق"، الذين سطع نجمهم إبّان الاستيلاء على **غرناطة**، مهمة **تنصير الهنود**، وأضفى بذلك الشرعية على قرارهم التدخل عسكرياً في العالم الجديد. وخلال عامين من ١٥١٩ - ١٥٢١م استولى **هيرنان كورتيس**[٣] Hernán Cortes على **المكسيك**.

---

(٢) إسكندر السادس وُلد باسم رودريك دي بورخا وبالايطالية بورجا (شاطبة، ١ يناير ١٤٣١م - روما، ١٨ أغسطس ١٥٠٣م) البابا الرابع عشر بعد المئتين للكنيسة الكاثوليكية من سنة ١٤٩٢م حتى مماته. [المترجم]

(٣) هيرنان كورتيس (١٤٨٥ - ١٥٤٧م) من جيل من المستعمرين الإسبان الذين بدؤوا المرحلة الأولى من الاستعمار الاسباني للأمريكتين. [المترجم]

ومـــن ١٥٣٠ - ١٥٣٤م اســـتولى **فرانسيـــسكو بيـــزارو**[٤] Francisco Pizarro علـــى إمبراطورية **الإنكا**[٥].

وكان من بين النصوص المقدسة التي كان الغزاة النصارى يستدعونها بطيبة خاطر نص نجده في **إنجيل لوقا**، حيث يعلن المبشر **لوقا**:

إن ابن الإنسان قد جاء لكي يطلب ويخلص ما قد هلك (لوقا، الإصحاح ١٩، الآية ١٠).

وفي موضع آخر يحكي **لوقا**:

إنسان صنع عشاء عظيماً ودعا كثيرين. وأرسل عبده في ساعة العشاء ليقول للمدعوين تعالوا لأن كل شيء قد أُعد. فابتدأ الجميع برأي واحد يستعفون... حينئذٍ غضب رب البيت وقال لعبده: اخرج عاجلاً إلى شوارع المدينة وأزقتها وأدخل إلى هنا المساكين والجدع والعُرج والعُمي. فقال العبد: يا سيد قد صار كما أمرت ويوجد أيضاً مكان. فقال السيد للعبد: اخرج إلى الطرق والسياجات وألزمهم بالدخول حتى يمتلئ بيتي. (إنجيل لوقا، الإصحاح ١٤، الآيات من ١٦ إلى ٢٤).

لقد أرادت بعض التأويلات المتأخرة لهذا النص، وللعبارة التي أصبحت مشهورة **ألزمهم بالدخول** إضفاء صفة الشرعية على إجبار الآخرين على التنصر بالقوة؛ والحق أن هناك هنا على وجه الخصوص دعوة مستعجلة. ونجد مبشراً آخر، **ماتيو**، الذي ردد **لوقا** مقولته، يفصل القول في قصة الخروف الضال الذي يبحث عنه

---

(٤) **فرانسيسكو بيزارو غونزاليس** (١٤٧١م أو ١٤٧٦ - ١٥٤١م) من جيل المستعمرين الإسبان، سقطت على يده إمبراطورية **الإنكا**، وهو مؤسس ليما، عاصمة البيرو العصر الحديث. [المترجم]

(٥) **الإنكا** (Inca) إمبراطورية قديمة بنتها شعوب من الهنود الحمر في منطقة أمريكا الجنوبية، وهي ذات حضارة ضاربة في القدم، وتشمل أرض **الأنكا** بوليفيا والبيرو والاكوادور وجزءاً من تشيلي والأرجنتين قاموا ببناء عاصمتهم كسكو وهي مدينة مترفة ومليئة بالمعابد والقصور تقع على ارتفاع ١١٠٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر في جبال الأنديز وقد أطلق عليها اسم مدينة الشمس المقدسة، تبلغ مساحتها ٩٩٠٠٠٠ كيلومتر مربع. [المترجم]

مالكه بلا كلل ولا ملل حتى يجده ؛ ويعد القصة على الفور يشير إلى التصحيح الأخوي الضروري :

كل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطاً في السماء، وكل ما تحلونه على الأرض يكون محلولاً في السماء (إنجيل ماتيو، الإصحاح ١٨ ، الآية ١٨).

وبذلك نجد رب البيت الذي صنع عشاء كبيراً، شأنه شأن الراعي الذي يذهب للبحث عن خروفه، يستخدم القوة الملزمة للتصرف بالآخر كما يتصرف بالأشياء الجامدة، لأن أحدهما والآخر يمتلك واقعياً القوة، ويعدان قضيتهما عادلة. إن هذه النصوص نصوص أساسية بمقياس أن مؤسس المسيحية هو الذي يبدو أنه يسمح بغزو العالم الجديد، وتنصير الهنود أتباع ملك إسبانيا.

وإن فكر **القديس أوغسطين**، واحد من أوائل آباء الكنيسة، وأول كبار منظري المسيحية يذكره مكتشفو العالم الجديد ومنظرو [١٥١] السلطة الملكية الإمبريالية. لقد استخدم **أوغسطين**، بوصفه أسقفاً كاثوليكاً لمدينة **إفريقية هي هيبون**[٦] Hippone ويمتلك سلطات عدالة وتبشير في أرض كانت في الأعم الأغلب ما تزال وثنية أو هرطقية، استخدم، نصوص **الإنجيل** التي سبق ذكرها لتسويغ عمله في التبشير وفي التوحيد السياسي والديني، وعلى وجه الخصوص لمواجهة المتبرعين :

لا ينبغي النظر إلى الإلزام في حد ذاته، ولكن ينبغي النظر إلى ما يهدف إليه الإلزام، إذا كان للخير أو للشر (رسالة[٧] إلى فانسانتيوس، ٤٠٨).

وفي العظة رقم ٤٦ يناقش **أوغسطين** الحكمة المستقاة من قصة الخروف الضال قارنا بها موضوع المدعوين الذين ينبغي إدخالهم بالقوة إلى منزل السيد. فيبتدع بذلك مفهوم **الاضطهاد العادل**، لأن فعل اضطهد persecutio لا تحمل باللاتينية معنى "الملاحقة العنيفة وغير العادلة" كما هو شأنها في اللغات الرومانية :

---

(٦) الاسم القديم لمدينة عنابة التي تقع في شمال شرقي الجزائر. وقد كانت واحدة من أهم المدن الرومانية في إفريقيا. وكانت مقراً للقديس أوغسطين. [المترجم]

(٧) عنوانها الكامل : *Lettre 93 à Vincentius*. [المترجم]

هناك اضطهاد عادل هو اضطهاد كنيسة المسيح الذي ينصب على الأشرار

لا يمكن إلا بصعوبة التوفيق بين الأخلاق والسياسة. هناك بالتأكيد تراجع للعنف، في مقياس أن أسقف هيبون يمتلك دعم السلطة السياسية. فحب المخطئين والضالين مترافق برغبة جارفة في خلاصهم، يبدو كأنه نتاج عنيف للتوحش في مكافحة الدوناتيين[٨]. هل من الصدق أن كل فعل ينتج عن حب هو فعل مصدره العدالة الإلهية. ولكن ما تلك العدالة السماوية التي ينطق بها البشر؟

ولكن البعد الأخلاقي ليس مع ذلك غائباً من فكر الأسقف. فهو في كتابه مدينة الله[٩] الذي كتبه بعد هجوم البرابرة على روما يفصل القول في مفهوم "الحرب العادلة":

إن ظلم الأعداء هو الذي نحن مجبرون على مواجهته بحرب عادلة تساعد الإمبراطورية الرومانية على الازدهار... (٤، ١٥).

وبذلك تبدو "الحروب العادلة" تفضل انبثاق إمبراطورية رومانية يكون فيها توحيد في الثقافات الوطنية. إننا حقاً هنا في سياق إيديولوجي، ينبغي فيه أن نفضح لا أخلاقية الخصم. وفي الوقت نفسه تتفوق مظاهر السلوك الواقعية على التمسك بالأخلاق، وفي بعض الأحيان يبطل تشابك المصالح والبحث عن تسويات اللعنة التي تتضمنها خطابات الكنيسة. إن الأوغسطينية السياسية تقترح بذلك بناء لاهوتياً للأمن يقوم على تعايش البشر: ويفسره أوغسطين كالتالي:

إن أسرة البشر الذين يعيشون بإيمانهم تنتظر النعيم الأبدي الموعود في الحياة الأخرى، وتأخذ من النعم الدنيوية والزمنية ما يأخذه الغريب العابر... إن المدينة السماوية، تستقطب خلال الزمن كله الذي تعيشه على هذه الأرض مواطنين من

---

(٨) Donatiste: نسبة إلى دونا، أسقف قرطاج في القرن الرابع الميلادي. [المترجم]

(٩) Civitate Dei.

الأمم كلها، ويجتمع في مجتمعها الغرباء من كل اللغات دون الاهتمام بتنوع الأخلاق والقوانين والمؤسسات... (١٩، ١٧)[١٠].

إن العولمة هي بالتأكيد في هذا الدمج المتنامي في المدينة السماوية للأجزاء التي يتكون منها كل الشعب العالمي؛ إن الحكم الأخلاقي ليس بلا شك معلقاً، ولكن الفضيلة الأولى تظل هي التأني. إن ذلك المجد المتأني والمتنامي هو الذي يمنح البشر حيويتهم وحياتهم الخاصة؛ إنها تسمح بقليل أو بكثير من السرية بالنيل من رقابة الدول، تلك الرقابة التي تحددها أخلاق وقوانين ومؤسسات، ومن أنواع السيادة الخاصة بتلك الدول. وبذلك يمكن أن يتشكل بفضل التداخل الموجود في المدينة السماوية المنفية على الأرض نظام كوني جديد. هل يمكن أن نصف ذلك بأنه طوباوي ليس إلا؟

أما رجل الدين الدومينيكي **توما الإكويني** فإنه يمنح في مشروعه اللاهوتي لفضيلة العدل مكانة مركزية. ففي القرن الثالث عشر الميلادي، عندما كانت المواجهات بين البشر والأديان [١٥٢] في **البحر الأبيض المتوسط** على أشدها كان هناك تعدٍّ متزايد على احترام قوانين الحرب، وقيام ما سيكون قبل أوانه عدالة دولية مع ما يلازمها من حق التدخل. وإن جوهر عناصر تفكير **توما الإكويني** مستعارة من **أرسطو**، ومن الكتاب الخامس من مؤلفه **الأخلاق إلى نيكوماك**. إن العدل هو الذي يوجه ويصحح أفعال الأشخاص، وهو الذي يفرض نفسه على العلاقات، وعلى مؤسسات الحياة الاجتماعية بوصفه مطلباً موضوعياً للاستقامة؛ إن له مقام قيمة فريدة تبحث عن المعايير والمقاييس ذات العلاقة مع الحقيقة؛ الحق هو غاية العدل وغاية الأفعال الصائبة. وقد أعطي قسم من الحق عبر القوانين الطبيعية التي تبين مقدار إسهام القانون الخالد أو السماوي في الإنسان: إنه الحق الطبيعي؛ وهناك قسم آخر من الحق يطرحه في آن معاً

---

(١٠) **مدينة الله**، باريس، ديكلي دو بروير، دراسات أوغسطينية، ١٩٥٩ - ١٩٦٠م، ترجمة ج. كومبس.
La Cité de Dieu, Paris, Desclée de Brouwer, Études augustiniennes, 1959 - 1960, traduction de G. Combès.

القانون السماوي، وهو عقل أعلى نجهله في ذاته، كما أعطي عبر القانون البشري الذي يرمي إلى صياغة القانون الطبيعي وتفعيله: إنه الحق الإيجابي. ويتبدى قانون الأمم كما لو أنه منحدر من الحق الطبيعي، وبالطريقة نفسها يقال إن القانون البشري منحدر من القانون الطبيعي، وإنه (قانون الأمم) يوضحه القانون البشري: إنه قانون عرفي، يُفترض به أن يكون كونياً، متضمناً العادات المشتركة والممارسات المشتركة بين الشعوب المختلفة. كل البشر خاضعون له، ولكن، في حين أن إرادة الفضلاء والعادلين ترتبط به، فإن إرادة السيئين تعارضه(**الخلاصة اللاهوتية**[١١]، **١أ ٢أب، ك. ٩٥، أ. ٢، ٤؛ و ٢أ، ٢أب، ك. ٥٧**). ولا يمكن معاقبة الكفار وإخضاعهم إلا إذا لم تحترم حكومتهم القانون الطبيعي، وهي عندئذٍ تكون حكومة مستبدة، وإلا إذا كانت عدوانية تجاه النصارى. واتضح أن وظيفة حماية الكنيسة والأمراء النصارى للمجتمع تتناسب مع قوتهم في قهر الخصوم، وبدا العنف وكأنه الوسيلة الضرورية والمقبولة التي تضمن الطبيعة المطلقة للسلطات الروحية والزمنية في المسيحية، وعدالتها. وبذلك انبثق مفهوم "الحرب العادلة". إن حرباً ما تكون عادلة بفعل "سلطة الأمير"، وبفعل "عدالة قضيتها"، وبفعل "النية المستقيمة"، أي طبقاً للإرادة الإلهية، وليس بفعل "قانون الأكثر قوة". وبذلك تم إستراتيجياً باسم عدالة متفوقة تحويل مسار بعض المبادئ مثل احترام سيادة الدول ومنع اللجوء إلى القوة وإلى العنف، وهي مبادئ تشكل كلاً منسجماً. وإن التدخل المسلح المسوغ أخلاقياً يعادل هنا حرباً "مقدسة".

لقد كان **توما الإكويني** أول من أدرج في علم اللاهوت مسألة الحرب، والحرب العادلة. ومع أنه وضعها في حيز الخطايا إلا أنه أنشأ لها مبادئ أخلاقية. فلا يكفي أن يكون هدف الحرب الخير العام والسلام، بل ينبغي أيضاً أن تكون قيادة الحرب، أي الوسائل المستخدمة فيها شرعية. إن سيطرة **الأمراء النصارى** على العالم كله تضمن احترام **قانون**

---

(١١) **الخلاصة اللاهوتية**، الترجمة الفرنسية، منشورات سيرف، ١٩٨٤م.
Somme Théologique, traduction Francaise, Éditions du Cerf, 1984.

الأمم، والخضوع إلى القانون الطبيعي، المتعلق لدى الإنسان بالقانون الأزلي أو الإلهي. حينئذٍ ستفرض نفسها ثقافة من نمط عالمي، ناتجة عن هيمنة دولة أو مجموعة من الدول المسيحية، مما سيفضي إلى وحدة مسيحية، "المدينة السماوية" التي ينتهي بها الأمر إلى احتواء العالم؛ إن الأخلاق والسياسة الدوليتين تجدان أنفسهما متصالحتين.

تلك هي الفرضيات الدينية المسبقة لأي لغة للتدخل المسلح في النظام النصراني. وإن النصوص المؤسسة والعقدية، بافتراض أن كل مواطني الدولة المسيحية يتبنون ما فيها، تسمح للأمراء بفرض هيمنتهم. إنها نصوص رمزية، وتشكل هدفاً انتقالياً حقيقياً، قادراً على عرض تجربة مشتركة بين كل مواطني إمبراطورية من الإمبراطوريات. وستكون تلك النصوص قريباً مصدر إلهام لبعض من مواطني الإمبراطورية الإسبانية للتعبير عن تصور جديد لحرية البشر ولكرامتهم. "ولكن مونتسكيو أخبرنا أن "الفضيلة نفسها تحتاج إلى حدود". [١٥٣]

٢- الكرامة الإنسانية وكتابة التاريخ

2. La dignité humaine et l'écriture de l'histoire

إن "تحطيم بلاد الهنود" التي غزاها الإسبان أثار الذهول والذعر في إسبانيا وفي البلاد المسيحية الأخرى. لقد اتضح أن التدخل المسلح قادر على أن ينزل بمجتمع من المجتمعات أضراراً فادحة، لا يمكن التراجع عنها. ونشير هنا إلى كارثة حقيقية، إلى حدث هو من حيث المبدأ قضاء مبرم. وإنه لمن الملاحظ أنه كان في رحاب القوة العظمى التي كانت حينئذٍ الإمبراطورية الإسبانية رجال قادرون على الوقوف ضد أي تعدٍّ يقع على أرواح رجال آخرين وأجسادهم.

فرجل الدين الدومينيكي بارتولومي دو لاس كازاس Bartolomé de las Casas (١٤٧٤ - ١٥٦٦م) الذي ينتمي إلى المذهب اللاهوتي نفسه الذي ينتمي إليه توما الإكويني، اشتهر بالتزامه الذي لا نظير له. إنه يدين خيانة الكلام الإنجيلي عن الخراف

والذئاب أو عن المدعوين الذين يجبرون بالقوة على الدخول إلى بيت الرب، ويدين التجاوزات ومظاهر العنف التي اقترفها الإسبان، ويستخدم مفهوم الحق الطبيعي في خدمة المطلب الجذري في الحرية لكل البشر، وعلى وجه الخصوص للهنود[١٢].

يلبس لاس كازاس في آن معاً لباس القاضي والمؤرخ لتقويم "الجريمة" التي ارتكبها الإسبان الغزاة في حق الهنود. انطلاقاً من الأرشيف الذي هو مصدر أساسي للمحاكمات، ومن العرض التاريخي الذي يقدمه، يظهر التأويل الذي يقدمه بضخامة الفعل الذي حدث في الحقيقة. هنا يلتقي الحكم الأخلاقي مع الحكم التاريخي دون أن يخجل لاس كازاس بوصفه من سكان العالم الجديد، ومؤرخاً من كتاب تاريخ الإمبراطورية الإسبانية، ودون أن يجد نفسه ألبتة مدفوعاً إلى الحجر على نفسه. وإن حكمه الأخلاقي بخصوص الأشخاص الفاعلين في التدخل المسلح يرتبط بحذر نقدي يقظ على الدوام، وبحذر العقل.

إن لاس كازاس مقتنع أن إسبانيا ونيابة الملك في إسبانيا الجديدة اكتسبت في سبيل وجودها تاريخاً عادلاً وعقلانياً، تاريخاً يليق باقتصاد الخلاص، تاريخاً جمعياً، كل إنسان فيه له حقوق الخلاص وواجباته. إذا كان تاريخ إسبانيا تاريخاً مقدساً كما أثبتت ذلك حروب استرداد شبه الجزيرة الإيبيرية إبان قرون، وإذا كان تاريخ إسبانيا مكاناً ذا دور حاسم في بناء الهوية الوطنية والمسيحية، فإنه ينبغي أن نستطيع كتابة، أن نثبّت بالكتابة تاريخاً للإمبراطورية الإسبانية يعلي شأن تنوعها المجيد، وتعدديتها المجيدة، وعولميتها. والحال أن استعباد الهنود، وتهديم بلادهم جلب بالضرورة "القمع"، وبالتالي خسارة الإسبان وإسبانيا. إن القمع هو بالمعنى الدقيق العذاب الأبدي. وإن ما يؤكده رجل الدين لاس كازاس هو، والحالة هذه، فاجعة بكل المقاييس. كيف ستحافظ على نفسها مستقلة في العالم قوة تقتل وتخرب نفسها ليس جسدياً فقط ولكن روحياً؟ إن كارثة تدمير "بلاد الهنود" تهدد وجود إسبانيا وتزعزع مبادئها نفسها، الأخلاقية والقضائية

---

(١٢) قارن هنري ميشولان، دم الآخر أو تبجيل الله، باريس، منشورات فايار، ١٩٧٩م، ص ٩٨ - ١٠٠.
Cf. Henri Méchoulan, Le sang de l'autre ou l'honneur de Dieu, Paris, Ed. Fayard, 1979, p. 98 - 100.

والسياسية. إن المعالجة التاريخية الرسمية للسلوك غير المقبول يفترض في النهاية نهاية تاريخ إسبانيا. إذنْ، إنه لمن المناسب لإنقاذ إسبانيا وتاريخها، أي كيفية تمثلها وتصورها، وهذا ينطبق على أي قوة دولية (نسبة إلى الدولة) أو مؤسساتية، أن تدين بجلاء إدانة مطلقة الأشكال غير القانونية للعنف، أشكال العنف التي تنال من ذاكرتها ومن وجودها نفسه، أي من صورتها، وأن تصلح الإدارة السياسية والاجتماعية للعالم الجديد. إن الأخلاق والقانون يتشابكان. ولن يكون هناك في تشابكهما تفوق للأخلاق على القانون، وهذا ما يبدو أن **لاس كازاس** يقوله.

وآية ذلك أن **لاس كازاس** يفضح الشر المطلق الذي ارتكب في العالم الجديد بعد التدخل المسلح المسوغ أخلاقياً. كان ينبغي على العنف المسلح بوصفه إجابة استثنائية على حالة مستعجلة، أن يتوقف فوراً بعد استقرار الإدارة الإسبانية في العالم الجديد. لقد ارتكب هذا الشر باسم الملك، وترك آثاره المدمرة على قسم مميز من الشعب، على الرغم من أن حقه على الملك توفير الحماية والأمن. لقد اقترفته إدارة [١٥٤] بلا أخلاق، ورضيت به دون اعتراضات ذات قيمة النخبة الإسبانية الحاكمة، وتحمله الهنود دون مقاومة تذكر. وهذا هو ما لا يمكن تسويغه. تفترض الكارثة ضياع القيم. إن العنف لا علاقة له بالغايات السياسية التي يمكن تحديد هويتها. إذنْ، ينبغي على إسبانيا، لتوجد، أن تمتلك زمام تاريخها المجيد من جديد، سامحة لكل مواطنيها من العالم الجديد، هنوداً كانوا أو غزاة، ومن العالم القديم أن تكون لهم على الدوام مشاركة في تمثيل مقتسم وجماعي لواقعة اكتشاف العالم الجديد. يعتقد **لاس كازاس** بالطبيعة الخيرة الأصلية للإنسان، كما يعتقد بضرورة أن يحيا الإنسان حياة ممتثلة للطبيعة، وبالحرية وبالمساواة بين البشر جميعاً. ولما كان هو نفسه إنسانياً ومعجباً بالتراث الإغريقي واللاتيني فإنه مقتنع كل الاقتناع بأن الهنود هم مؤهلون تأهيلاً استثنائياً لقبول رسالة **الإنجيل**، لأنهم عاقلون، ولأنهم بشر أشبه **بالنصارى** من النصارى أنفسهم. إن التاريخ الذي كتبه **لاس كازاس** ليس فيه شيء من سمات المشروع اليائس؛ إنه تاريخ يسعى إلى سد الفجوة بين القدرة التمثيلية للخطاب،

وعريضة الأحداث التي لا يمكن القبول بها. تاريخ يعي أن له تأثيراً مفيداً في تشكل المعايير الاجتماعية الجديدة من جانب، وفي الذاكرة الجماعية وصورة إسبانيا من جانب آخر. إذنْ، إن قيادة العالم تتمثل في أن يوفر الإنسان لنفسه شروط إمكانية كتابة تاريخه، ورسم صورة مقبولة لذاته وللآخر المختلف. يمكن لمسألة "الحكومة الجيدة" **للإمبراطورية الإسبانية**، التي ربما تكون هي أيضاً مسألة الديمقراطية المستقبلية، يمكنها، في أفق ذلك القلق التاريخي الرسمي والتمثيلي، أن تأخذ صيغة سؤال: ماذا يعني "**العيش المشترك**"؟ وعلى وجه الخصوص "**ما الشبيه**؟" ألا يمكننا، بل ألا ينبغي علينا أن نعيش عيشة مشتركة إلا مع شبيهنا؟ إن التفوق المنسوب أو المعترف به لسلطة أو لقوة متضمن أو مفروض في الكائنات ذاته بوصفها مكونة من أشباه. هل تتمثل كتابة التاريخ فقط في أن نضع معاً ونتبصر معاً في قيم التجمع، والشبيه، كما تتمثل في جعل الآخر شبيهاً بما في ذلك في المحاكاة وفي المقارنة؟ يكتب جاك دريدا Jacques Derrida:

إن الشرعة الأخلاقية الخالصة، إذا كان هناك شرعة أخلاقية خالصة، تبدأ باحترام كرامة الآخر بوصفه المفارق المطلق، الذي يعرف بوصفه غير معروف[١٣].

وإن مما تجدر ملاحظته هو أن اكتشاف العالم الجديد شجع انتقال الثروات والخدمات ورؤوس الأموال والبشر. وقد أسهم من هذا المنطلق، وبمقياس من المقاييس في انتشار الجريمة: لقد اتسع مجال نشاط المهربين. لقد سبق أن شهدنا في القرن السادس عشر عولمة مالية سمحت بإعادة توظيف الأموال التي جناها أصحابها من أصناف التهريب أو السرقات العلنية. إن هذه "العولمة" قبل حينها عمقت عدم المساواة والفقر داخل **الإمبراطورية الإسبانية** وفي العالم. والأدب المسمى الأدب "**الشطاري**"[١٤] الذي

---

(١٣) أوغاد، باريس، منشورات غاليلي، ٢٠٠٣م، ص٩٠.

Jacques Derrida, Voyous, Paris, Ed. Galilée, 2003, p. 90.

(١٤) Picaresque= لم تظهر لفظة بيكاريسكا PICARESCA بوصفها لفظة إسبانية إلا في نهاية الربع الأول من القرن السادس عشر، قبيل ظهور الرواية الشطارية الأولى في الأدب الإسباني للروائي المجهول ألا وهي: *La vida de Lazarillo de Tormes y sus fortunas y adversida* (**حياة لاثاريو دي طورميس وحظوظه ومحنه**). =

شهد ازدهاراً في القرنين السادس عشر والسابع عشر في إسبانيا هو خير ممثل لتزايد الفقر، وظهور جماعات اجتماعية من الشطار، لصوص وعيارين من كل الأنواع. وقد كان لتلك العولمة المالية آثارها أيضاً في الأمن الخارجي لإسبانيا وإمبراطوريتها. إن تحطيم "بلاد الهنود" حرض على ظهور "حكاية أسطورية سوداء" هي دعاية معادية لإسبانيا، حكاية عنيفة، هي نتيجة من نتائج إفلاس المسوغات الأخلاقية، وقوة الإيديولوجيات المعادية للقوة الإسبانية، مما جعلها تعاني من المصاعب في أوروبا وفي العالم. إن تدعيم الوظائف الملكية للدولة الملكية الإسبانية اكتسب حينئذٍ صفة شرعية ضد الغزاة الذين بدوا كأنهم تابعين خطرين على السلطة الملكية، وضد المتمردين من كل الانتماءات الذين يشجعون الاضطرابات؛ إن عنف هؤلاء الأخيرين لا علاقة له ألبتة مع المرامي السياسية المحددة الهوية للعاهل الإسباني، إنه (العنف) منفصل عن أي عقلانية سياسية. لقد كانت السلطة الملكية الإسبانية تفهم أنه ربما يمكنها بمساعدة الكنيسة تدعيم إحكام سيطرتها الإدارية على الأراضي التي غزتها والعمل على ترميم صورتها على المستوى الدولي.

= تدل هذه اللفظة على جنس أدبي جديد تشكل في إسبانيا لأول مرة. ثم، انتقل بعد ذلك إلى فرنسا وألمانيا وانجلترا وأمريكا. و تعني هذه الرواية ذلك المتن السردي الذي يرصد حياة البيكارو أو الشاطر المهمش؛ لذلك تنسب هذه الرواية إلى بطلها بيكاروPicaro) الشاطر) أو(المغامر) الذي يقول عنه قاموس الأكاديمية الإسبانية: " نموذج شخصية خالعة و حذرة وشيطانية وهزلية، تحيا حياة غير هنيئة كما تبدو في عيون المؤلفات الأدبية الإسبانية"، أو أنه: " بطل مغامر شطاري مهمش صعلوك محتال ومتسول". وتعتقد الأكاديمية الإسبانية أن لفظة Picaro مشتقة من فعل Picar في معناه الشعبي المجازي، وهو الارتحال والصيد واللسع. وتعني picaresque في اللغة الفرنسية الأعمال التي تصف الفقراء والمعوزين والمعدمين والصعالكة والمتسولين والأنذال أو قيم المتشردين والمحتالين واللصوص في القرون الوسطى. وقد صدرت مؤخرا عن دارالنشر ليتغراف بمدينة طنجة وبدعم من وزارة الثقافة الاسبانية ترجمة مغربية لرواية لاثريو دي تورميس لكاتب مجهول، وهي من روائع الأدب الكلاسيكي الإسباني. أنجز الترجمة إدريس الجبروني المصمودي و محمد المساري. انظر مقالاً بعنوان: الرواية البيكارسكية أو الشطارية: وهو تقديم الدكتور جميل الحمداوي لترجمة الرواية المذكورة، منشور على موقع أنفاس نت. [المترجم]

[١٥٥] وفي سياق المطالبات المتتابعة التي قدمها **لاس كازاس** قضت القوانين الجديدة[١٥] التي صدرت بين عامي ١٥٤٢ - ١٥٤٣م إلغاء نظام الإقطاع encomienda الذي كان يضع **الهنود** في وضعية هي أقرب إلى الرق. لقد كان ثمن سلبية السلطة **الإسبانية** مرتفعاً جداً في مجال الصورة والخلاص، ولكن أيضاً في مجال خسارة قوى **الهنود** الحية. لقد استبدل بكلمة "غزو" في النصوص الرسمية للقوانين الجديدة كلمة "اكتشاف". وتم في عام ١٥٣٠م، ثم عام ١٥٤٢م تحرير **العبيد الهنود**، واستبدل بهم عبيد سود جيء بهم من **إفريقيا**، مما يظهر أيضاً محدودية تفكير **لاس كازاس**. إن مرافعة **لاس كازاس** لصالح **الهنود** لها منظور هو في جوهره دفاعي ورعوي: ينبغي المواءمة بين **التنصير**، والسلامة الجسدية والإثنية **للهنود**، وكذلك الأمر بالنسبة إلى مصالح **التاج الإسباني**.

يقتبس **لاس كازاس** في بداية كتابه **تاريخ بلاد الهنود** العظة التي ألقاها راهب **دومينيكي** آخر هو **فري أنطونيو دو مونتيسينو** Fry Antonio de Montesino في آخر يوم أحد من مقدمات عيد الميلاد عام ١٥١١م. وقد عدت هذه العظة بحق بمثابة بيان مؤسس لما سماه **لويس هانك** Lewis Hanke "**كفاح الإسبان من أجل العدالة في استيلائهم على أمريكا**"[١٦]:

---

(١٥) هي حزمة من القوانين التشريعية أصدرها التاج الإسباني في ٢٠ نوفمبر "تشرين الثاني" ١٥٤٢م، وكانت تهدف إلى تحسين ظروف السكان الأصليين في أمريكا الإسبانية أساسا من خلال إعادة النظر في نظام العمل، وإعطاء حقوق أكبر للسكان الأصليين للعيش في ظروف أفضل. [المترجم]

(١٦) **لويس هانك، الكفاح الإسباني من أجل العدالة في استيلاء إسبانيا على أمريكا**، مدريد، منشورات أغويلار، ١٩٦٧م، ص ٣٩ - ٤٨. وهو ترجمة لكتاب بالإنجليزية صدرت ضمن منشورات جامعة بنسلفانيا، ١٩٤٨م.

Lewis Hanke, la lucha española por la justicia en la conquista de América, Madrid, Ed. Aguilar, 1967, p. 39 - 40. Trd. The Spanish Struggle for Justice in Conquest of America, University of Pennsylvania Press, 1948.

بأي حق وبأي عدالة تتركون هؤلاء الهنود في هذه العبودية الوحشية والمريعة؟ باسم أي سلطة شننتم حرباً بمثل هذه القذارة ضد هذه الشعوب التي كانت تعيش هانئة وبسلام في هذه الأراضي، وقتلتم عدداً كبيراً من بينهم بجرائم قتل ومجازر لم نشهد لها مثيلاً من قبل؟ ... أليسوا بشراً؟ أليسوا أنفساً عاقلة؟ ألستم مطالبين بأن تحبوهم كما تحبون أنفسكم؟... كونوا متأكدين أنكم في الحالة التي أنتم فيها لن تستطيعوا إنقاذ أنفسكم شأنكم شأن الموريسكيين والأتراك الذين ليسوا نصارى ويرفضون[١٧] عقيدة المسيح...[١٨].

يكتسب هذا النص أهمية كبيرة لأنه يطرح مسألة مشروعية التدخل المسلح. من الذي يمنح تلك المشروعية؟ وسواء كانت مرجعيتنا مفهوم السلطة الشرعية، التي هي شرط الحرب العادلة، أو كانت تعريف السيادة التي تنص على أنه يمكن للعاهل أن يتخذ القرار في حالة استثنائية - وهذا تعريف السيادة حسب **كارل شميث** Carl Schmitt - فإن مسألة الحكم أو من يمتلك المشروعية هي المسألة المركزية لأن لها انعكاساً لاهوتياً جوهرياً، إنه الاعتراف أو عدم الاعتراف **بروح الهنود**، وبأن وضعيتهم تؤهلهم أو لا تؤهلهم للخلاص في إطار فداء **المسيح عليه السلام** الكوني للبشرية.

إذنْ، إن مما تجدر ملاحظته أن أول إشكالية طرحت حول حقوق الإنسان هي لاهوتية، وهي لا تنبثق من طموح مجرد للكونية، وإنما من رفض مفرط في المادية من

---

(١٧) لم تعلق المؤلفة على ما في هذا النص من جهل بعقيدة المسلمين (الموريسكيون والأتراك) الذين لا يرفضون عقيدة المسيح عليه السلام، بل هم يكنون لها في نسختها السماوية البعيدة عن التحريف الذي طالها بالانتقال من موطنها التوحيدي كل آيات التقدير والاحترام، ويسلمون في صلواتهم على عيسى عبد الله ونبيه، وله في معتقدهم مكانة مميزة. [المترجم]

(١٨) **تاريخ بلاد الهنود**، مدريد، مكتبة المؤلفين الإسبان، تقدمة على نية شفاء خوان بيريز دو توديلا وإميليو لوبيز أوتو، ١٩٥٧م، ص١٧٦.

Historia de las Indias, Madrid, Biblioteca Autores Espanoles, a cura de Juan Pérez de Tudela y Emilio Lopez Oto, 1957, p. 176.

إنسان إسبانيا لما لا يمكن التسامح فيه، ومن رغبته في ذاكرة عادلة يقتسمها كل مواطني ملك إسبانيا، ومن ذاكرة عادلة جماعية هي أيضاً تمثيل يمكن قبوله. كذلك كان ينبغي أن تدار الإمبراطورية الإسبانية، وكذلك ينبغي أن يدار العالم، من منظور كرامة كل إنسان - البشر وأرواحهم العاقلة - ، ومن منظور صورة لائقة وتمثيل للذات لائق. إن ما في ذلك مما تجدر ملاحظته هو أن الاعتراف بكرامة الإنسان لأي إنسان مواطن تبدو مرتبطة بكتابة التاريخ وبإدارة الصورة بوصفها تخليداً لوجود الدولة ذات السيادة. إن كتابة التاريخ بوصفها إدارة للصورة هي بطريقة غير منتظرة ما يأتي لضبط "منطق" السيادة الذي لا يمكن له إلا أن يفرط في استخدام سلطته، لأنه يسعى إلى الحكم دون أن يقاسمه أحد في ذلك مانحاً الصوابية لمنطق الأكثر قوة. ذلك كان [١٥٦] حصيلة عامة للجانب المادي وغير المادي للتدخل المسلح يسمح بالحكم حكماً نهائياً حول شرعيتها. إن مفهوم الندم، ليس ندم الدولة في حد ذاتها، وإنما ندم الإسبان على أخطاء الماضي هو أمر موغل في الراهنية. ولا يعدم لاس كازاس التأكيد على أن إسبانيا كلها هي التي ستعاقب على الأخطاء التي ارتكبها بعض مواطنيها:

بسبب تلك الخطايا، ينبغي أن يعاقب الله إسبانيا كلها عقاباً مريعاً، وربما يدمرها تدميراً شاملاً[١٩].

ولقد أولت الفيلسوفة حنة أرنت اهتماماً كبيراً لأمر كتابة التاريخ بوصفه شرطاً لإمكانية السيطرة على الماضي ولإدارة العالم

لكي لا تصبح الإنسانية مجرد كلمة جوفاء أو شبحاً.

فتكتب في كتابها **الرجل في العصور المظلمة**[٢٠]:

---

(١٩) **سبل الانتصاف، ١٥٤٢م، الاعتراض الثامن على نظام الإقطاع**، مدريد، مكتبة المؤلفين الإسبان، تقدمة على نية شفاء خوان بيريز دو توديلا و إيميليو لوبيز أوتو، ١٩٥٨م، ص١١٩.

Entre los Remedios, 1542, Octavio remedio contra la encomienda, Madrid, Biblioteca Autores Espanoles, a cura de Juan Pérez de Tudela y Emilio Lopez Oto, 1958, p. 119.

(٢٠) *Men in Dark Times*.

إذا اعتمدنا المقياس الذي يقضي بأن بعض السيطرة على الماضي ممكنة فإن تلك السيطرة تتمثل في العلاقة مع ما حصل... إن مثل تلك العلاقة التي تصنع التاريخ لا تحل أي مشكلة ولا تخفف أي معاناة... المسألة هي معرفة أي مقدار من الواقعية ينبغي اعتماده حتى في عالم أصبح لا إنسانياً لكي لا تصبح الإنسانية مجرد كلمة جوفاء أو شبحاً.

إن كتابة التاريخ هي العمل الجوهري لليقظة النقدية في مكان وزمان محددين من التاريخ البشري:

وتكتب أيضاً حنة أرنت مقتفية أثر لسينغ Lessing:

إن الحقيقة لا يمكن أن توجد إلا هناك حيث يخلع عليها القول الصفة الإنسانية، هناك حيث كل امرئ يقول: لا ما يخطر على باله، ولكن ما "يبدو له حقيقة". والحال أن مثل ذلك القول مرتبط... بفضاء متعدد الأصوات، الإعلان فيه عما يبدو أنه حقيقة يجمع البشر ويفرقهم في آن معاً، موجداً بذلك تلك الفوارق بين البشر الذين يبنون العالم معاً.

وتعرف حنة أرنت العالم بأنه ما "لا يتشكل إلا في المسافة بين البشر في حالتهم الجمعية"(٢١). إن إدارة العالم هي إدارة المسافات، إنها فسح المجال لظهور تاريخ بعدة أصوات، ولظهور فضاء بعدة أصوات.

٣- ابتداع قانون دولي: قانون الأمم

3. L'invention d'un droit international: le jus gentium

لقد ظهر، والحالة هذه، أنه من الضروري إعطاء القوة الإمبريالية لإسبانيا تأطيراً عقدياً وقانونياً جلياً لحماية ما يمكن أن نسميه منذ ذلك الحين تنميتها المستدامة. والمقصود هنا على وجه الحقيقة تأطير أخلاقي للعولمة، حاول القيام به رجال اللاهوت

---

(٢١) الترجمة الفرنسية، الحيوات السياسية، باريس منشورات غاليمار - تلو ١٩٧٤م، فصل: في الإنسانية في "العصور المظلمة"، ص٣١، ٤١.

Trd. Française Vies politiques, Paris, Ed. Gallimard - TEL, 1974, Chapitre: De l'humanité dans de "sombres temps", p. 31, 41.

والقانون الإسبان في سلمنقة Salamanque، في مسار بعض القناعات التي آمن بها لاس كازاس. إن الرعب الذي كان مصدره كارثة "تحطيم بلاد الهنود"، وهو رعب يمكن أن نصفه بأنه مقدس، يعيد تنظيم القانون و يستثير تفكيراً قانونياً. ألا يمكن تأمين سلام العالم بوساطة قانون، قانون ذي أصول دينية وقانونية؟ إن رجال اللاهوت أمثال توما الإكويني ومن جاؤوا بعده يعلمون أن الخطابات والمشاريع اللاهوتية موكل إليه مهمة الانطباق على كل ما يخص الإنسان والعالم:

[١٥٧] إن واجب رجال اللاهوت ومهمتهم متوسعان كل التوسع حتى إن أي موضوع وأي نقاش وأي مجال لا يبدو غريباً عن الخطاب والمشروع اللاهوتيين[٢٢].

إن رجل دين آخر أيضاً، من النحلة الدومينيكية هو فرانسيسكو دو فيتوريا (١٤٩٢ – ١٥٤٦م)، لاهوتي ورجل قانون من جامعة سلمنقة، درّس في باريس من عام ١٥٠٩ إلى ١٥٢٣م، وارتبط بالأوساط الإنسانية وربما بإيراسم[٢٣] Érasme، رجل الدين هذا هو الذي سيحدد الوضع القانوني للشعوب المهزمة، وهو وضع سيسمح لهم ليس فقط بالدخول إلى حيز الوجود البشري، وإنما إلى الوجود السياسي من أجل مجد الإمبراطورية الإسبانية وعاهلها. إن فيتوريا، شأنه شأن لاس كازاس، أصيب بصدمة عظيمة من عنف مواطنيه في العالم الجديد. ففي عام ١٥٣٩م وجد نفسه بوصفه لاهوتياً

---

(٢٢) فرانسيسكو دو فيتوريا، درس في السلطة السياسية، ١٥٢٨م، باريس، مكتبة فران، ١٩٨٠م.
Francisco de Vitoria, Leçon sur le pouvoir politique, 1528, Paris, Librairé.

(٢٣) إيرازموس (باللاتينية: *Desiderius Erasmus Roterodamus*) (١٤٦٩ – ١٥٣٦م)، فيلسوف هولندي، من رواد الحركة الإنسانية في أوروبا، ومن الخدمات التي أسداها للتعليم علاوة على نشره الكتب التربوية، اتصاله المباشر بالطلبة والمراسلات الشخصية. وقد تناول في مؤلفاته معظم مظاهر التربية وقضاياها الهامة مثل الطريقة والمحتوى وآداب الطفولة وتعليم اللغة. كان يكتب باللغة اللاتينية. تمتع إيرازموس بشخصية مستقلة كما عرف عنه طبعه الساخر (مناظرة في مدح الجنون)، قام بالتعليق على نصوص العهد الجديد، وحاول أن يضع مبادئ الحركة الإنسانية حسب التوجهات المسيحية، كما أراد أن يقرب بين أتباع المذهب الكاثوليكي وأتباع الحركات الإصلاحية الجديدة. [المترجم]

ورجل قانون في كتابه **حكايات الهنود مع قانون الأمم**[٢٤] في مواجهة المسائل الصعبة للعدالة الدولية ولاحترام قوانين الحرب العادلة في تسيير التدخلات المسلحة، وللندم الذي تشعر به الدول على أفعالها الماضية. وأراد الإجابة بتعريفات جلية على التساؤلات التالية: ما الشعب؟ كيف يتحدد حق الشعوب في أن يُعترف بها شعوباً؟

لقد أقام تفكيره على ثلاثة مبادئ سبق أن أعلن عنها **توما الإكويني**. **الأول**: هو أن السلطة المدنية هي من القانون الطبيعي، وتنبثق مباشرة من المجتمع حتى إن كان أصلها البدئي صادراً عن الذات الإلهية: ليس للإمبراطور ولا للبابا سيادة كونية. **والمبدأ الثاني**: هو مبدأ الجماعة الكونية، التي يكون للجميع فيها، من نصارى وكفار ووثنيين، حقوق وواجبات متشابهة تنبثق من القانون الطبيعي. **والمبدأ الثالث**: يتمثل في تحديد استقلالية المجتمع المدني، الوطني والدولي: إن الكنيسة هي التي ينبغي أن تسهر على أن تسمح المصلحة العامة التي هي غاية السلطة المدنية للإنسان بأن يحقق خلاصه الذي هو غايته الخارقة، وينبغي عليها أيضاً تشجيع الأمراء على خدمة المصالح الروحية. لقد شرع علم اللاهوت بذلك، وبفضل الاكتشافات الكبرى، في التبصر في إدارة سياسية للعالم تضيء لها الطريق السلطة الدينية.

وانطلاقاً من هذه المبادئ أدان **فيتوريا**، إدانة عنيفة، الغزو الدموي لبلاد **الهند الغربية**. ودافع عن مبدأ أن يحتفظ الكفار بملكية أراضيهم. وأثبت أن قانون الأمم هو قانون إيجابي يقوم على التوافق الكوني لكل الشعوب المتحضرة أو لمجموعة من **الأمم المسيحية**؛ إنه مأخوذ من الوحدة البشرية، إنه مؤسس على "سلطة العالم" ويفرض بوساطتها. إن هدف **فيتوريا**، الذي لم يكن هدف **توما الإكويني**، هو ابتداع قانون دولي مؤلف من قواعد وضعية، دقيقة ومستقرة: وإنه لمن الطبيعي حسب هذا القانون التدخل لتحرير الأبرياء من الاستبداد.، ومن القرابين البشرية، ومن أكل لحوم البشر، التي يُنظر إليها لا على أنها خطايا، ولكن بوصفها إخلالاً خطيراً بالقانون الطبيعي، مما يسوغ غزو

---

(٢٤) *Relectiones de Indis et de Jure belli*.

إسبانيا للمكسيك: تلك هي "الوجوه الصحيحة" للغزو. إن **فيتوريا** منظّر حق التدخل، قانون التدخل، في حالة حصول تعدٍّ جوهري على الحقوق التي نسميها اليوم إنسانية.

هناك في المجتمع الدولي ترابط كوني بين أنواع السيادة داخل العالم الذي هو من الآن فصاعداً منفتح كلياً لانتقال البشر والثروات. إن خطاب **فيتوريا** يجعل العبور من إمبريالية قديمة، ذات منشأ ديني، ولكنها خالية من أي دلالة روحية، إلى إمبريالية حديثة ذات عقلية تجارية ورأس مالية ممكناً، وهذا ما كان ليرضي الإمبراطور **شارل كنث**. إن بديل العنف لم يعد هنا التساوي أمام القانون الطبيعي فقط، ولكنه على وجه الخصوص تنظيم المبادلات، وترسيخ السلام [١٥٨] المدني، ورد الاعتبار الاقتصادي. لقد وجدت بذلك ذرائعية **الإمبراطورية الإسبانية** أسسها الرمزية بفضل الفكر اللاهوتي. يمكن **للإمبراطورية الإسبانية** أن توجد بوصفها قوة اقتصادية عالمية "لنظام عالمي جديد".

يُسمح للإسبان الإتجار إلى الهنود(دون أن يلحقوا الضرر بوطنهم بالطبع)، بأن يصدروا إلى هناك البضائع التي لا توجد لدى الهنود على سبيل المثال، وأن يستوردوا من الهنود الذهب والفضة والأشياء الأخرى التي تكثر لديهم. ولا يستطع زعماء الهنود منع تابعيهم من الإتجار إلى الإسبان ولا بالمقابل منع الإسبان من الإتجار إلى الهنود[٢٥].

إن التبادل الحر للسلع يسمح بتمكين كل جماعة من الوصول إلى موارد أكثر، أفرز قبل الأوان نظرية لتزايد العائد الدولي الحقيقي. وينصب هذا التبادل الحر على منتجات آتية من مصادر مختلفة. ولكن القسم الأهم من ذلك التبادل يتم في رحاب **الإمبراطورية الإسبانية**، بين مختلف الجماعات التي تكونها، فهو إذا يخضع للالتزامات التي تحددها السلطة السياسية للإمبراطورية. وقد أشار **فيتوريا** هنا إلى وجود سوق داخلي مهم، وهذا السوق يفترض طلباً على الأموال أو على منتجات متنوعة يرتبط حجمها وتكوينها بمستوى الحياة. وسيكون بإمكان مبدأ التبادل الحر أن يشكل بعد حين

---

(٢٥) **فرانسيسكو دو فيتوريا**، م. س، ص ١٠١.

أداة يسيطر بها من أكثر غنى على من هم أكثر فقراً. لا يمكن للتجارة الدولية أن تكون مربحة لكل المشاركين في عمليات التبادل. إن تنامي المبادلات سيزيد إنتاج، الذهب والفضة على سبيل المثال، مما يدعم في آن معاً رقابة الدولة واستغلال الهنود في العمل: يكتب **عمانوئيل ليفيناس** Emmaneuel Lévinas:

إننا لا نواجه الآخر وجهاً لوجه ولكن عبر الذهب الذي يشتريه أو الفولاذ الذي يقتله؛ إن التجارة تستهدف السوق المجهول(٢٦).

إن آخر "الاتجاهات الصحيحة" التي ذكرها رجل الدين **فيتوريا**، اتجاه غامض كل الغموض لأن المقصود به هو قانون وصاية المتحضرين على الشعوب

التي وإن كانت غير محرومة كل الحرمان من العقل فإنها ليست بعيدة عنه كل البعد مما يدل على أنها غير مؤهلة لتكوِّن جمهورية شرعية في أشكالها البشرية والمدنية.

إن مأزق اللجوء إلى القوة يفاقم مشكلات جديدة: هل ينبغي أن توجه القوة لحماية الضحايا أو ليستخدمها الغزاة المحضِّرون وسيلة قهر؟ ما طبيعة استقلالية العسكري بالنسبة إلى السياسي؟ وإذا كان **فيتوريا** يطرح الأسس القانونية لمجتمع دولي وللعولمة فإنه يسوغ أيضاً التوسع الاستعماري **الأوروبي**. إنه يسوغ وجود **الإمبراطورية الإسبانية** وطرائقها. وإن التمييز غير واضح بين الحرب التي نطلقها للدفاع عن المصالح، والتدخل الذي ليس في نواياه أي مصلحة، ولكن يمكن أن يكون له لدى الموعز به دلالة إستراتيجية، ويزيد الاهتمام السياسي به. وبذلك كان الفكر اللاهوتي لدين معين، هو المسيحية في القرن السادس عشر الميلادي تعبيراً عن مآزق أخلاقية طرحتها الأبعاد الجديدة للعالم ولعلاقات البشر.

إن العالم من الآن فصاعداً مدرك بكليته. والقانون الطبيعي يسمح لأي إنسان بالارتحال، والتجارة وبالاستقرار في أي قسم من الكون شاء. إن العالم فضاء انتقال

---

(٢٦) **عمانوئيل ليفيناس، الكلي واللانهائي، محاولة في المظهر الخارجي**، باريس، كتاب الجيب، ١٩٩٠م، ص٢٥٣.

Emmaneuel Lévinas, Totalité et infini, essai sur l'extériorité, Paris, Livre de poche, 1990, p. 253.

للبشر وللبضائع. وإذا لم يعترف **هنود الإمبراطورية الإسبانية** بهذا القانون الطبيعي فإن اللجوء إلى العنف ضدهم هو حينئذٍ لجوء شرعي. وإذا كان العنف ليس [١٥٩] والحالة هذه مستبعداً من الوسط السياسي فإن المقصود هو ضرب من العنف يحتاط لما بعد الحرب، المسؤولية عن الشعوب وعن أمنها، ووجود حلول سياسية للخلل في الأنظمة الذي تخلفه الحرب.إن قانون الأمم هو ضمانة للعدالة، وهذه "العدالة" هي في جوهرها تجارية، و ذرائعية. ويبدو أن النظرية اللاهوتية في القانون الطبيعي التحقت بالواقعية الماكيافيلية. ألا تتجاوز العدالة القانوني والسياسي؟ هل يمكنها أن تنحسر في العقل الحسابي، وفي التوزيع الاقتصادي، وفي المعايير والقواعد التي تكيف القانون، حتى في لجوئه إلى قوة القهر، وإلى قوة السلطة التي لاحظ **كانط** Kant أنها مدرجة ومسوغة في أكثر مفاهيم القانون مثالية[٢٧]. والحال أنه من الصحيح أيضاً أن الأشخاص يستطيعون التطلع في هذا التنظيم الاقتصادي، وفي هذا التنقل الحر للأموال والأشخاص في **الإمبراطورية الإسبانية** وفي العالم كله، يتطلعون، إلى أن يكونوا في حالة ود متبادل، وفي حالة حوار وجدل محترم.

ويؤكد **فيتوريا** في كتابه: **الهندي ماجنا كارتا**[٢٨] الصادر عام ١٥٣٩م أن **الهنود** الذي اعتنقوا المسيحية ينبغي أن يعاملوا، من الآن فصاعداً، معاملة الكائنات الحرة، وأن كل شعب ينبغي أن يمتلك سيادته، وأن العالم ينبغي أن يسوده السلام والتضامن الدولي. إن للتاج الإسباني حقوقاً وعليه واجبات نحو مواطنيه، وعلى وجه الخصوص واجب أن يعيد للهنود الذين غزاهم، واهتدوا إلى المسيحية أموالهم وأراضيهم التي اغتصبت قهراً. إذا كان العدل يتجاوز القانون فإنه أيضاً ما يسوغ حركة الفكر العقلاني

---

(٢٧) القانون هنا يفترض عقلية الأكثر قوة تبعاً لقوانين كونية، إذاً عقلانية، وتتوافق مع حرية أي كان: **ميتافيزيقيا الأخلاق، المبادئ الميتافيزيقية الأولى لمذهب القانون، مدخل إلى مذهب الأخلاق**، الفقرتان D, E.، الترجمة الفرنسية أ. فيلونانكو، فران، ١٩٧٩م، ص ١٠٥ - ١٠٧.

Métaphysique des mœurs, premiers principe métaphysiques de la doctrine du droit, introduction à la doctrine du droit& & D.E., trad. Fr. A. Philonenko, Vrin, 1979, p. 105 - 107.

(٢٨) *Carta magna de los Indios*.

اللاهـوتي، والقـانوني والـسياسي وتاريخـه. لـيس هنـاك عدالـة بـلا دعـوة إلى الحتميـة القانونية وإلى قوة القانون. وبذلك اجتهد علماء اللاهوت في الإمبراطورية الإسبانية في منتصف القرن السادس عشر الميلادي، على الرغم من كل أشكال الغموض التي لازم زمـانهم وتـاريخهم، وعلـى وجـه العمـوم، لازم حكـم البـشر، اجتهـدوا، في التوصية بالفاعلية السياسية وباحترام الكرامة الإنسانية، في السياسة الدولية وفي علم الأخلاق. لقد وضعوا المبادئ الأولى للعولمة وللتنمية المستدامة، ولـشكل من أشكال تحرير المبادلات الذي لم يكن خلواً من الأخطار كما ستثبت ذلك الأحداث السياسية والاقتصادية لتاريخ إسبانيا وتاريخ العالم الجديد التي نتجت عن ذلك. إن تلك المحاولات الأولى لتأطير العولمة، ومهما كانت تقريبية وغالباً متناقضة، كان لها فائدة أساسية تمثلت في تعريف قانون الأمم وقانون الأشخاص. لقد اتسع فضاء مرجعيات البشر كل التوسع.

وإنه لمن المهم التثبت من أنه إذا كان المقصود في فكر لاهوتيي مدينة **سلمنقة**، كما هو الحال في فكر القديس **أوغسطين** في كتابه **مدينة الله**، الأخذ بيد كل إنسان إلى الخلاص الذي تقدمه **المسيحية** فإنه ليس المقصود في أي حال من الأحول تحقيق توحيدية ثقافية، ولا فرض ترك الجماعات المختلفة سماتهم الثقافية، ولا انبثاق ثقافة عالمية، حتى وإن كان من الجلي أن جعل العالم يعتنق المسيحية كان ما يزال في القرن السادس عشر الميلادي هو الهدف.إن مجتمع القيم هو الأساس الفكري الذي سمح بولادة حقوق الناس. وإن مسؤولية منطق لاهوتيي **سلمنقة** شكلت في هذا التأرجح بين الخاص والكوني، وفي الإحراج المنطقي الذي تسببه عمليات التنقل المستحيلة بين النسبي والمطلق، وبين ما يمكن حسابه وما لا يمكن حسابه.

وبعد حين عبر عن هذا تعبيراً رائعاً اليسوعي **فرانسيسكو سوارز** Francisco Suarez (١٥٤٨ - ١٦١٧م)، لاهوتي آخر من **سلمنقة**، في كتابه **بحث في النعمة الإلهية**[٢٩]:

---

(٢٩) *Tractatus de Legibus ac de Deo Legislatore*.

إن الجنس البشري وإن كان مقسماً إلى شعوب وممالك مختلفة فإن بينه على الأقل وحدة ليست نوعية فقط، ولكنها إذا صح القول سياسية وأخلاقية؛ وتدل على تلك الوحدة الحكمة الطبيعة للحب المتبادل وللرحمة، وهي حكمة تتسع للجميع، حتى للغرباء، في أي وضع كانوا.

إن عبارتيْ "وإن كان مقسماً إلى شعوب وممالك مختلفة"، و"في أي وضع كانوا" هما بالطبع عبارتان رائعتان بكل المقاييس.

وإن إسبانيا التي وجدت نفسها مدفوعة إلى إدارة قسم كبير من العالم بعد اكتشاف بلاد الهند الغربية سعياً إلى تحقيق مصالحها الاقتصادية والإستراتيجية أرست لنفسها في القرن السادس عشر الميلادي الأسس الرمزية لذرائعيتها الاقتصادية والسياسية. وإذا كانت النصوص المقدسة للعرف النصراني قد انبثقت من بلاغة سلطتها فإن الصدمة المزدوجة للحدث غير المحسوب والاستثنائي للاكتشاف، والكارثة التي تمخض عنها الغزو فرض على تلك البلاغة افتراضات مسبقة أنثروبولوجية (إناسية) مدلولها "إنساني" مهما كانت درجة الانفلات فيه. وقد كان لهذه الأزمة التاريخية فضل تمثل في أن رجالاً عرفوا يواجهون على رؤوس الأشهاد واقع العولمة ومقارعتها، وكانوا قادرين على الحكم والمبادرة، وعلى إيجاد حياة مشتركة جديدة. لقد فهموا أن إسبانيا، بعد الكارثة، لا تستطيع متابعة وجودها بلداً قوياً ومستقلاً إلا بفضل كتابة مناسبة لتاريخها، وبفضل إدارة محكمة لصورتها، جامعين بين تأويل النصوص المقدسة، والتأويل الممكن للأحداث في فضاء متعدد الأصوات. إن لكل ذرائعية أسساً رمزية. وبذلك يظل تشكل **قانون الأمم** على يد لاهوتيي سلمنقة ورجال القانون فيها، على الرغم من كل ما احتواه من تناقضات وتعقيدات، يعد الإضافات الرئيسة التي أضافها التاريخ إلى معاصرتنا، المتعلقة بواحدة من بداياته التي تشكل ما تصفه الفيلسوفة حنة أرنت بأنه "معجزة الحرية"[٣٠]. ويتضح اليوم أيضاً أن شرعية

---

(٣٠) حنة أرنت، مدخل إلى السياسة ٢، هل ما زال للسياسة معنى؟ باريس، لو سوي، ١٩٩٥م، ص١٥٢.

Hannah Arent, Introduction à la politique II, La politique a - t - elle finalement encore un sens? Paris, Le Seuil, 1995, p. 152.

اللجوء إلى القوة والحرب العادلة هي على الدوام أكثر صعوبة وأكثر تعقيداً في تقويمها من مجرد التحقق من قانونية قرار التدخل. وإن اختيار الخيارات العسكرية المحدودة، القادرة على تقليل الخسائر في صفوف المدنيين هو أمر جوهري وينبغي قطعاً أن يترافق بالتفكير بما بعد انتهاء الحرب، وبمسؤولية الإدارة عن الشعوب وعن أمنها، بإمكانية وجود حلول سياسية تجعل افتراس المنتصرين المهزومين مستحيلاً. إن للقوى الكبرى على الدوام مواقف غامضة، عندما ترفض التنازل عن سيادتها. كان رجال لاهوت سلمنقة وقضاتها قد حاولوا تحديد مهمات السيادة **الإسبانية**، بوصفها مسؤولية حماية **الهنود** ودمجهم لأنهم الجانب الأضعف. وفي بداية القرن الحادي والعشرين هذه ما يزال هناك اختلاف حول شرعية نظام دولي لإدارة العالم ومستقبل ذلك النظام، وحول التصورات عن السلام عبر الإمبراطورية أو القانون، عبر التوازن أو التعاون. إن هذه الاختلافات يمكن أن تفسح المجال لكل أنواع التلاعب الإيديولوجي.

لقد استمد الأمريكي **صموئيل هنتنجتون** Samuel Huntington في كتابه الشهير **صدام الحضارات**[٣١]، من حالة القلق الناتجة عن "**تحديث بلا تغريب**" حجة للإشادة بانعزالية **الولايات المتحدة الأمريكية**. وهو يؤكد أن: **قانون الامتناع**[٣٢] **هو القانون**

---

(٣١) صموئيل هنتنجتون، صدام الحضارات، باريس، أوديل جاكوب، ١٩٩٤م.

Samuel Huntington, Le Choc des civilizations, Paris, Odile Jacob, 1994.

[وقد ترجم الكتاب إلى العربية عدة ترجمات، عدنا في توثيق النص الوارد هنا إلى الطبعة الثانية من منشورات مجلة سطور المصرية، القاهرة، ١٩٩٩م بترجمة طلعت الشايب وتقديم د. صلاح قنصوه، انظر ص ٥١٢. المترجم]

(٣٢) أول ثلاثة قوانين اقترحها **هنتنجتون** للسلام العالمي. ويعني قانون الامتناع أن تمتنع دول المركز عن التدخل في صراعات داخل الحضارات الأخرى. والقانونان الآخران هما: قانون الوساطة المشتركة؛ أي أن تتفاوض دول المركز مع بعضها لاحتواء أو إيقاف حروب خطوط التقسيم الحضاري بين دول أو جماعات داخل حضارتها. وقانون العوامل المشتركة؛ أي أن تبحث شعوب جميع الحضارات عن تلك القيم والممارسات المشتركة بينهم وبين شعوب الحضارات الأخرى وأن يقوموا بتوسيعها. انظر الترجمة العربية لكتاب **هنتنجتون**، م. س، ص٥١٢ – ٥١٨. [المترجم]

الأول للحفاظ على السلام في عالم متعدد الأقطاب ومتعدد الحضارات. ولكن **هنتنجتون** كتب كتابه قبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر"أيلول" ٢٠٠١م، وإن هدم الإرهابيين برجي **مانهاتن** Manhattan برهن على أن العولمة تمس كل مظاهر حياة البشر والمجتمعات. ليس هناك "امتناع" ممكن.

[١٦١] إن النشر الحديث لمجموعة من المحاولات حول القانون الدولي **لكارل شميث**، عنونتها ناشرة الكتاب: **الحرب الأهلية العالمية** أنعش الجدل الذي بين حدود القانون الدولي و ميثاق الأمم المتحدة الذي ليس إلا "أداة للهيمنة الدولية"[٣٣].

إن ما تقوم به الحكومة **الرواندية** الحالية برئاسة الرئيس **بول كاجامي** Paul Kagamé من إسباغ صفة الوسيلة على مبادئ **قانون الأمم** يشكل مثالاً مرعباً كل الرعب للتضليل الإعلامي، الذي يرمي، وإن كان الثمن مجازر منتظرة، إلى جعل من يمتلكون القوة للحرب هم الضحايا، وإلى جعل الذين حالوا بين الأطراف المتحاربة، هم القتلة. وإن لجنة التحقيق التي شكلتها الحكومة **الرواندية**، المسماة: **اللجنة الوطنية المستقلة**[٣٤] جرى تكليفها على رؤوس الأشهاد "بجمع عناصر الأدلة التي تظهر تورط الدولة الفرنسية في التحضير لتنفيذ الإبادة الجماعية التي حصلت في **رواندا** عام ١٩٩٤م، والتي ذهب ضحيتها ٨٠٠ ألف شخص". وقد كان هدف هذه اللجنة الأساسي هو عرقلة التحقيق الذي كان يتولاه القاضي الفرنسي المكلف بمكافحة الإرهاب **جان – لويس بروغير** Jean-Louis Bruguière، والذي خلص إلى تورط الأوساط القريبة من الرئيس **كاجامي** في الأحداث التي تسببت في الإبادة الجماعية. والحال أنه كلما أطل برأسه خطر ظهور مسؤولية النظام الحالي في رواندا عن الإبادة

---

(٣٣) **الحرب الأهلية العالمية، محاولات في القانون الدولي لكارل شميث**، ترجمتها وجمعتها وقدمت لها **سيلين جوان**، باريس، منشورات إير، ٢٠٠٧م.

La guerre civile mondiale, essays sur le droit international de Carl Schmitt, traduis, réunis et préfacés par Céline Jouin, Paris, Ed. Ere, 2007.

(٣٤) *Commission Nationale Indépendante (CNI).*

الجماعية ازداد سعي هذا النظام لتوجيه الاتهام لفرنسا. وآية ذلك أن فرنسا كانت البلد الوحيد، مع بعض الدول الإفريقية هي التي تجرأت على التدخل للفصل بين المتحاربين، وعلى عدم الامتناع أمام الرعب، والأمم المتحدة فوضتها في الثالث والعشرين من يونيو"حزيران" ١٩٩٤م لقيادة قوة دولية مشتركة للفصل بين أطراف النزاع لوقف المجازر ولحماية الشعب حماية لا تحيز فيها، وكان ذلك فيما سمي: عملية الفيروز، التي قادها الجنرال جان – كلود لافوركاد Jean-Claude Lafourcade، والتي كانت حصيلتها النهائية إيجابية جداً، ولقيت ترحيباً واسعاً من المجتمع الدولي. ولكن ما حدث هو أنه بعد عشر سنوات اتهمت اللجنة الوطنية المستقلة في تقريرها الذي نشر في الخامس من أغسطس"آب" ٢٠٠٨م، بعد ١٩ شهراً من التحقيق، العسكريين الفرنسيين "بالاشتراك في الإبادة الجماعية"، وبكونهم "مسئولين عن تجاوزات خطيرة انصبت على حياة المدنيين الذين كانوا تحت حمايتهم وعلى صحتهم الجسدية والنفسية". ونجد من جديد هنا، وبكل دقة، بعض العبارات التي استخدمها لاس كازاس في القرن السادس عشر للدفاع عن الهنود، رعايا ملك إسبانيا ضد الإسبان، مسهماً بذلك كما سبق أن رأينا في حسم تشكيل حقوق الشعوب في عصرنا الحالي. إن الحكومة الرواندية فهمت حق الفهم كيف تتلاعب بالانفعال الذي بعثه هول الكارثة لدى الدبلوماسيين والإنسانية والإعلامية. وترافق كل ذلك بحملات تضليل إعلامي وضعت نفسها في خدمة تلك الحكومة.

ويأتي في هذا السياق الفيلم السينمائي عملية الفيروز الذي أخرجه آلن تاسما Alain Tasma، وعرضته دور السينما في نوفمبر"تشرين الثاني" ٢٠٠٧م، هذا الفيلم أشاع بين عامة الشعب في ساعة وستة وخمسين دقيقة فرضية تورط مزعوم للجيش الفرنسي في تصفية جماعة من الهوتو[٣٥] Hutus، زاعماً أنه يدين فقط الخيارات السياسية في ذلك الوقت. ويصف هذا الفيلم نفسه وصفاً غير مسؤول زاعماً أنه فيلم

(٣٥) الهوتو والهوسا قبيلتان متنافستان في روندا، جرت بينهما حرب إبادة متبادلة. [المترجم]

توثيقي – تخيلي، في حين أن اسم الفيلم: **عملية الفيروز**، والأماكن التي تدور أحداثه فيها، والشخصيات التي يجري الحديث عنها فيه هي أمور يسهل التعرف عليها. ومهما يكن من أمر فكيف يمكن التحلي بالجرأة لاستخدام مصطلح "**تخييلي**" بخصوص أحداث خطيرة؟ وفي الوقت نفسه لم يدعُ الصحفي **كولمب شنيك** Colombe Schneck إلى برنامجه المعنون "**لدي مصادري**" على راديو **فرانس أنتير**، الذي أذيع في التاسع عشر من نوفمبر"تشرين الثاني" ٢٠٠٧م إلا مؤيدي اتهام الجيش الفرنسي بما نسب إليه، وأعني صانعي الفيلم وصحفي من صحيفة **الفيغارو** Le Figaro، دون الإشارة إلى أي تحقيق مضاد، ودون الاتصال بالجنرال **لافوركاد**. بل إن الأمر وصل بصانعي الفيلم إلى الإشادة بسعة صدر الرئيس **بول كاجامي** الذي كان له بالطبع مصلحة كبيرة في السماح بتصوير الفيلم، ولكن حكمه الديكتاتوري اشتهر بوصفه حكماً دكتاتورياً فظاً. وإن ما يثلج الصدر هو أن السلطات السياسية **الفرنسية** أشارت حينئذٍ على الفور إلى أن "**فرنسا لا** تخالجها أي مشاعر ندم على مخالفات لم يرتكبها جيشها".

[١٦٢] لقد كان بالتأكيد من السديد والمؤثر التفكير في الوسائل التي تمكّن **المجتمع الدولي والأمم المتحدة**، قبل عام ١٩٩٤م، وقبل أي تدخل، من تفعيل فكرة منح الوقت الضروري والظروف المناسبة لكي يشارك "الشيوخ" والحكماء من القبلتين الموجودتين على الأرض في نقاش طويل ينظم حسب التقاليد الإفريقية؛ وهنا كان يمكن لوسائل الإعلام أن تؤدي دورها ليكون لها إسهام في إيجاد حلول جديدة ليست حلول "المستعمرين" القدماء، ولا حلول الهيئات الدولية، ولا حلول أنصار معاداة الاستعمار وأصحاب الإيديولوجيات المنحرفة، ولكنها حلول تحترم الحقوق الأساسية للشعوب والأفراد. وبذلك، وفي نهاية تاريخ طويل وصعب أصبحت حقوق الشعوب وحقوق الأفراد التي صاغها رجال اللاهوت في **سلمنقة** في القرن السادس عشر الميلاد تتطلب منا في حياتنا اليومية التحلي بالحس النقدي، ومسؤولية كل الرجال وكل النساء الذين يأملون أن يروا تلك الحقوق موضع احترام.